تذكرة إلى جهنم

هـــدي مهـــران

ليالي الهوى، لذات المتعة جنون الخطأ وتخطي الحل والحرم، كل ذلك عالم لامع وله بريق، لكنه مثل القمر تمامًا، جذبني نحوه نوره الوهاج وما إن وصلت إليه إلا وجدته مظلمًا كئيبًا لا ترى فيه سوى الرذائل!

عالم بذيء بكل ما تحمله الكلمة من معنى، أنا من اثقلت كاهلي بالهموم وسقط بي هواي في غيبات جبٍ عميق، لم أعد أحتمل ولم يعد يجذبني هذا العالم البراق الزائف.

خرجت في تلك الليلة من سهرة حافلة مشمئز من نفسي، وألعن حتى مساحة قدماي من الأرض؛ فكم أكره ذلك العالم ولا استطيع أن أفارقه، سحقًا هذه الذلة الأولي!

وقفت في ممر طويل لا أذكر كيف وصلت إليه، لكن وجدته خاليًا من الناس؛ فأحببت السير فيه؛ لأني قد سئمت البشر أو بمعني أدق سئمت نفسي.

مر وقت طويل والليل يزداد سوادًا والطريق لا ينتهي، زفرت بضيق ووقفت لعلي استنشق هواء غير سام أو ملوث برذائل، أغلقت عيناي لبرهة ثم فتحتهما فوجدت سيارة أجرة تقف أمامي مباشرة، جزعت، واتسعت حدقات عيني، كيف وصلت إلي هذا القرب ولم أشعر بها أو أسمعها؟!

فتح السائق باب السيارة، وترجل متوجهًا إلي، كانت هيئته تشبح أشباح الظلام، ملابسه السوداء ، وجهه القبيح شعره المتناثر وعيناه اللامعة، اضطربت أنفاسي وهو يقترب، دنا أكثر وقال بصوت أجش:

- هل تريد أن أقلك سيدي؟

تنفست الصعداء وهدأ نبض قلبي، ثم قلت وأنا أضع يدي علي كتفه:

-لقد أخفتني يارجل!

قلتها ساخرا من خوفي.

نظر إليَّ الرجل باستهجان، وكأنه شعر بالإهانة عندما وضعت يدي على كتفه، وسحبتها علي الفور، وأردفت أقول:

-أجل أريد أن أذهب.

-قال بغلظة: تفضل.

يخامرني الشك، أم أن حالي المشوه لم يعد يميز!

تقدمنا وركبنا السيارة وأدار المحرك وتابع سيره، ثم سألني بعد سير ليس بطويل:

- إلى أين؟!

-لم أكن أعلم إلى أين أريد أن اذهب؟

انا لا أعرف أي مكان قد يخلصني من حالتي التي بدأت تطبق على أنفاسي وتكاد تقتلني، صمت وطال صمتي.

فقال الرجل بنفاذ صبر:

- لم تُخبرن إلى أين؟!

obeikandl.com

- إلى جهنم!

قلتها دون تفكير وما إن قلتها حتى شعرت أني بالفعل أود أن أذهب إلى جهنم ياليتني أستطيع، ليتني أستطيع، لم ينطق السائق بعد ذلك بكلمة، وتابع سيره بالسيارة، وبعد وقت طويل أوقف الرجل السيارة، وقال:

- ها قد وصلنا.

ونظر إليَّ وابتسم بمكرٍ، تسلل الريب إلى قلبي وقلت في دهشة:

- إلي أين وصلنا؟!

قال بلهجة آمرة: ترجل من السيارة هيا!

وبالفعل ترجلت، أدار السيارة ثانية، وقال وهو يغادر بصوت متهكم:

-مرحبا بك في جهنم، وأطلق ضحكات مخيفة وغادر المكان.

كان المكان حالك الظلام، تنبعث منه روائح كريهة، شديد الحر،صرخت راكضًا خلف السيارة:

-انتظر، لا تتركن، ساعدوني!

دب الخوف في قلبي، وصرت أركض حتى تلاشت نور مصابيح سيارته، وأصبح الظلام كل ما أرى زاد خوفي و تصببت عرقًا وصرت ألهث، ولازلت أركض على وقع أنفاسي لا أري شيئًا ، أصرخ بملء فمي:

-أغيثوني، النجدة، النجدة!

لكن لا حياة لمن تنادي، وقفت ألتقط أنفاسي بعد عدوٍ طويل ورغم طوله، أشعر أني لازلت بمكاني نكست رأسي، لكن رفعتها فجأة حين سمعت صوتا ينادي:

-مرحبًا بك في جهنم، لماذا تريد الخروج؟ ألم تكن هذه رغبتك؟

obeikandl.com

لهثت بشدة وأخذ صدري يعلو ويهبط وقلت صارخًا:

-لا، لا، لا أريد الذهاب إلى جهنم!

-الصوت: لقد فات وقت الاختيار؟

عدت أصرخ بأعلى صوت:

- لا، لا، هل مت؟ أنا لا زلت علي قيد الحياة، كيف أدخل جهنم؟!

ضحك الصوت بشكلٍ مخيف، ثم صرخ قائلًا:

-وحين ارتكبت ما ارتكبت كنت على قيد الحياة.

قلت بخوفٍ وآسى:

- لا أستطيع أن أواجه عقابي، أرجوكم اتركوني، اتركوني، من أنتم؟!

فجأة شعرت بأنفاس تقترب، ولا زال الظلام هو كل ما أرى، وما إن اقتربت هذه الأنفاس إلا وانبعث وهج أحمر خارج من أعينهم بالكاد يظهر هيئتهم، وليته لم يظهرها!

فهم أناس ذو أجسام ضخمة، صلع الرؤوس، كريهو الرائحة، أقبح ما ترى عيناك على الاطلاق، قيدوني بأغلالٍ وأنا أصرخ وأبكي أتصبب عرَقا ودمعًا أريد الخلاص منهم، لكن دون جدوى، وسحبوني معهم.

وفجأة انبجس نور شديد أعمى بصري وصهر جلدي من شدة حرارته!

لم يكن نورًا بل نارًا، وفتحت أبواب جهنم!

وحين فتحتها فكت أغلالي وابتعدوا عني، فهرولت مبتعدًا وصرت أركض بأقصى سرعة لكني وجدتها أمامي، ركضت يسارًا يمينًا شرقًا، وغربًا كانت جهنم في كل مرة أمامي لا خلاص أبدًا منهم! ولازلت أصرخ:

obeikandl.com

- النجدة، الغوث!

لكن صوت بلا أذان ماذا عساه يفعل؟! استسلمت جاثيًا ومرت أيام حياتي ورأيت فيها كل لذة تحرق قلبي. والذنب سياج من ناروأنا من اخترقت ذلك السياج ولابد أن أتجرع النيران!

وقفت أمامها خائفًا ومرتعدًا من هول ألسنتها التي تمتد نحوي تأكد تلعق جسدي، أذوب من حمم نيرانها، ورياحها السموم السوداء تعمي البصر، ورائحتها صديد ذنوب قذر نتن مثير للاشمئزاز، وبردها القارس الذي يجمد عظامي ولحمي ودمي، برد وجليد ونيران وسموم!

فاجتمع الضدان، وعدت أذكر ذنوبي وينهال دمعي شلالًا حارًا، صرخت من فرط الألم:

-لماذا فعلت بي هذا؟ لابد أن هذا كابوس يستحيل أن يكون حقيقة، أريد الخروج من هنا..آآآآه

-ماذا فعلت لك لتفعل بي هذا؟

يسمع صوتًا داخله يناديه:

- تنهرني اليوم وتصرخ، ماذا عن مقدسات قد هانت ووالدين ثكلتهم حسرتهم؟ ماذا عن صحة، أهلكت يد، بطشت عيون، زنت لسان تفحش، وأذان تلصصت؟! ماذا عن أمانات ضيعت وأرجل تخطت حدودها، وعيون لم تزرف منذ عهود دمعاتها إلا من دخان أسود متطاير؟!

-ماذا عن عقول تبلدت، وقلوب قست؟!

-ماذا عني أنا؟! نفسك، أهلكتني، أهلكتني!

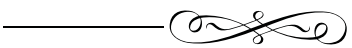

-قلت بتردد وخوف: أنا!

نهرني الصوت مرة أخرى بشدة: اخسأ، و قف واجه مصيرك، تقدم ولتعلم هذه ليست جهنم هذه حياتك التي أخترت، وعلى المرء أن يواجه اختياراته.

ووقفت مجمدًا لا أدري، هل أغدو نحوها أم هي تهرول نحوي؟! لكني أعلم جيدًا ماذا سأرى فيها!

obeikandl.com